فى أفق السياسة العالمية

مشكلة إيران

لو درى « زرادشت Zoroaster » الذى ظهر فى إيران قبل المسيح بألف عام تقريبا وبشّر الناس برسالة النور والحق ، أن النار المقدسة التى اتخذها رمزاً لعبادته ستتفجر يوماً من سفوح الجبال وبطون الأرض عيوناً سائلة فيها نور ودفء ولها بأس شديد ، وأن القوة الغاشمة ستفيد يوماً من هـذه العيون المتفجرة فتعرض بلاده وأهلها للقمع والعـدوان . — لو درى « زُرادشت » ذلك لآثر أن يجف هذا السائل وأن تفيض تلك العيون فى قاع الأرض مستغفراً لأهله من خطيئتهم فى حق الآلهة على أن تذهب بلاده فريسة لآلهة النار والحديد فى هذا القرن العشرين !

وأول ما انسلّ النـاس إلى إيران فى هذا العصر الحديث لاستخراج زيت البـترول كان فى بدء القرن العشرين حين حصل أحد رجال المال الانجليز من الحـكومة الفارسية على امتياز استخراجه لمدة ستين عاماً من مايو سنة ١٩٠١ ، وظل الرجل سبع سنين يحفر وينبش وينقب عن السائل النفيس ولـكن بدون جدوى . وأخيراً فى سنة ١٩٠٨ عنـدما صدرت الأوامر فعلا بوقف العمل وصل رجاله إلى نبع لا ينضب معينه عند « مسجدى سليمان » فى الجنوب الغربى من إيران . فتشجع الرجل وعاوده نشاطه ، وأخذت حقول البترول تتسع قليلا قليلا ، والآبار تكثر شيئاً بعد شئ والإنتاج يتضاعف رويداً رويداً ، حتى بلغ مبلغاً كبيراً ، وتكونت لاستنباطه الشركة الإنجليزية الفارسية .

ولما رأت البحرية الإنجليزية ان مصلحة الأسطول تقضى باستعمال البترول فى تسيير سفنه بدلا من الفحم ، وكانت موارد الإمبراطورية البريطانية وعملائها تقصر عن إمداد الأسطول العظيم بكل حاجته من الوقود الأبيض ، عملت

الحكومة الانجليزية على ضمان مورد البترول من إيران فاشترت فى سنة ١٩١٤ معظم أسهم تلك الشركة ؛ وبذلك تحول الامتياز من الفرد إلى الشركة ومنها إلى الحكومة ، وأصبحت إنجلترا منذ ذلك الوقت تعتمد على إيران فى تزويد أسطولها بما يناهز ٢٠ ٪ من البترول الذى يلزمه .

وقد تكون مثل هذه الكشوف المعدنية فى البلاد التى تعتز بحكوماتها وشعوبها مصدر ثروة وقوة لا يستهان بهما ، على أنها فى بلاد كأيران تعاقب عليها ملوك وحكومات ضعيفة حقباً طويلة من الزمن ، لا تلبث هذه الكشوف أن تكون للأقوياء كالقصاع للجياع يتهافتون عليها ويتسابقون إلى اقتناصها

ويتشابكون ، ولكنهم فى النهاية يأكلون إلى حد التخمة ، وصاحب القصعة جائع قائم على خدمتهم ، لا يملك من أمره فتيلا . وكذلك كان فى إيران ؛ فقد اقتضى كشف الزيت أن تقام معامل لتصفيته وتكريره ، وأن توضع أنابيب وسكك حديدية وتمهد طرق وتنشأ مركبات لنقله ، وأن تكون للشركة أو بالحرى للحكومة صاحبة الامتياز مراكز للرقابة والحراسة ، لا فى أماكن الآبار وحدها بل على طول الطرق والسواحل التى يمر فيها موكب البترول إلى الخليج الفارسى . ومن ثمّ نشأت للحكومة الإنجليزية هناك مصالح حيوية جعلتها تمد أخطبوطها الاستعمارى إلى جزره وسواحله وموانيه لتجعل منه بحيرة إنجليزية .

وكانت روسيا وحدها فى أول الأمر ترنو ببصرها نحو إيران جارتها الهزيلة المتخاذلة تريد أن تقص من أطرافها مايتاخم إمبراطوريتها الواسعة التى أنشأتها فى وسط آسيا وغربيها فى أثناء القرن التاسع عشر . ولكن هزيمتها المنكرة أمام اليابان سنة ١٩٠٥ جعلتها تتراجع مؤقتاً وتعقد مع انجلترا اتفاق سنة ١٩٠٧ ، وبمقتضاه بدأ الجانبان بأن أكدا احترامهما لاستقلال ايران وسلامة كيانها ، ثم ثنّيا بتقسيمها إلى منطقتى نفوذ : الشمالية منها لروسيا والجنوبية لإنجلترا ، وترك مابين المنطقتين أرضاً حراماً محايدة تأمن بها انجلترا خطر التصادم الروسى . وقد فسر كلا الطرفين أن احترام الاستقلال لايتنافى البتة مع السيطرة وتثبيت النفوذ الاقتصادى والسياسى بجميع الوسائل مادامت جيوش الدولتين لاتحتل المنطقتين .

ومع أن إيران كانت فى ذلك الوقت قد استيقظت من سباتها وقامت بحركة دستورية أرغمت فيها الشاه على إعلان الدستور ودعوة المجلس الوطنى إلى الاجتماع لإصلاح المفاسد التى شملت جميع مرافق البلاد ، فإن عقد المعاهدة الروسية الانجليزية ، وما تلاه من تقسيم البلاد إلى مناطق نفوذ تجارية أو سياسية ، قد خيب أمل الإيرانيين وجعلهم يمقتون الروس والانجليز جميعاً ، ويتربصون بهم الدوائر حتى إذا بدأ المصلحون يضطلعون بأعمال الحكومة ويباشرون إصلاح الحالة ، أهملوا رجال الحكومتين ولجأوا إلى الحكومات المحايدة يستعينون برجالها فى وضع أسس الاصلاح ، فجعلت كل حكومة من هذه الحكومات تقتطع لنفسها ناحية من نواحى الإصلاح ، فكان من نصيب الولايات المتحدة إصلاح مالية البلاد ، وجاء البلجيك ينظمون الجمارك ، وتولى رجال السويد إنشاء هيئة قوية للشرطة وحراسة الأمن ، واستخدم الطليان فى تدريب الجيش ، وإنشاء

الطرق . ولما كان الأمريكيون فى مقدمة هذه البعثات أهميـة إذ كانوا يشرفون على مالية البلاد أوجست روسيا خيفـة من وراء الإصلاحات ، فأرسلت إنذاراً نهائيًا إلى حكومة إيران تطالبها بطرد بعثة الولايات المتحدة ، وإلا زحفت بجيشها نحو طهران . فعز على الوطنيين الإيرانيـين أن يذعنوا لإنذار روسيا ، ووقفوا فى وجهها . ولو أن بريطانيا آزرت جانب الوطنيين ونصرت قضيـة الأحرار ضد استبداد الحـكومة القيصرية ، لازدهرت حركة الإصلاح فى البلاد وباءت روسيا بالإخفاق والخذلان . ولـكن روسيا وبريطانيا كانتا متحالفتين فلم تصنع بريطانيا شيئاً ، وزحفت روسيا فاحتلت جيوشها قزوين ومنها هددت طهران . وعندئذ سقطت حكومة الثوار وتولت الأمر حكومة رجعية ما لبثت أن حلت المجلس الوطنى ، وأبعدت المستشار الأمريكى وأعوانه ؛ وبذلك صالحت الروس ، وعادت الحال فى إيران سيرتها الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ولما انتهت الحرب كانت الثـورة الروسية قد اندلعت ، واستنكر الثوار المعاهدات التى عقـدتها الحـكومة القيصرية مع الحلفاء ، فبطل العمل ضمناً بالمعاهدة الإنجليزية الروسية بشأن إيران . . وكانت ألمانيا قد خرجت أيضاً من الميدان مدحورة ، فأصبحت إنجلترا وحدها أمام المسألة الإيرانية ولا منافس لها ، فخيل إليها أنها تستطيع تسوية علاقاتها معها على الوجه الذى يرضى مطامعها ، فعقدت معها فى سنة ١٩١٩ معـاهدة جديدة أكدت فيها النغمة التقليدية التى اعتادت الدول أن تفتتح بها معاهداتها مع الدول الضعيفة ، كتركيا فى ذلك الوقت وكإيران ، فاستهلتها باحترام استقلال إيران ، وحفظ كيانها ، ثم نصت على شروط جعلت من إيران فى حقيقة الأمر دولة تحت حماية بريطانيا فى الوقت الذى كانوا فيـه قد قيدوا اسم فارس فى سجلات عصبة الأمم كدولة مؤسسة .

وفات بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى أن روحاً جديدة قد بدأت تسرى فى إيران على أثر إعلان مبادئ ولسون وقيام الثورة البلشفية على حدودها ، وأن هذه الروح تتطلب سياسة جديدة تخالف السياسة الاستعمارية العتيقة التى اتبعتها بعد الحرب لتثبيت أقدامها بالقروض المـالية وبتعيين مستشاريها وموظفيها وضباطها فى الجيش والمالية وسائر مصالح الدولة . وكما باءت سـياسة إنجلترا بالخسران فى مصر والهند وإيرلندة بعـد الحرب العالمية الأولى كذلك أصابها

الإخفاق فى إيران . فما هى إلا فترة قصيرة حتى قامت وزارة جديدة فى إيران استندت إلى حكومة الثوار فى روسيا فضربت بالمعاهدة الإنجليزية عرض الحائط ، وبدأت صفحة جديدة فى حياة البلاد .

وكان البلاشفة فى أول أمرهم حراصاً على كسب عطف جيرانهم من الأتراك والأفغان والإيرانيين ليعوضوا بصداقاتهم مافقدوه من ناحية أوربا بعد أن قطع الحلفاء كل صلة بهم . ولذلك لم يكن غريباً أن تسخو روسيا مع الإيرانيين فتنزل لهم بمقتضى معاهدة سنة ١٩٢١ عن جميع ديونها وعن امتيازاتها وعما كان لها فى منطقة نفوذها من سكك حديدية ومهمات ، كما نزلت طبعاً عن معاهدة سنة ١٩٠٧ مؤيدة عزمها على عدم التدخل فى شئون إيران أو المساس بحقوقها بأى شكل كان . وكانت نتيجة ذلك أن تشجع الإيرانيون فقاموا ضد الإنجليز وأبعدوا ضباطهم ومستشاريهم وموظفيهم معلنين فسخ معاهدة سنة ١٩١٩ وأصبحت روسيا بعد ذلك الحليفة المفضلة لدى الإيرانيين .

وكما أن خاتمة الحرب العالمية الأولى فى البلاد المستضعفة قد أنتجت أبطالا أمثال سعد زغلول وديفاليرا وغاندى ومصطفى كمال — أولئك الذين أضاءوا الطريق أمام شعوبهم فوحدوا كلمتها وقادوها نحو الحرية والتحرر من نير الأجنبى تارة بالسلم وأخرى بالعنف وآناً بالصمت ، كذلك تمخضت الظروف التى تلت تلك الحرب فى إيران عن بطل وطنى عظيم فى شخص الشاه السابق رضا خان بهلوى الذى نهض بمعاونة أحد الزعماء الصحفيين الايرانيين من ضابط بكتيبة القوزاق الإيرانية إلى وزير للحربية فى سنة ١٩٢١ ثم إلى رئيس الوزارة فى سنة ١٩٢٣

وكان هذا الوزير الجديد من القوة والصرامة وسمو الروح الوطنية بدرجة جعلته معبود الشعب والدكتاتور المتسلط على شئونه فى آن واحد ؛ لذلك خشى مناوئوه الإقامة فى إيران ، فمنهم من رحل إلى العراق كصديقه الزعيم الصحفى ومنهم من فضل الإقامة فى أوربا لينعم بمباهجها كالشاه أحمد . وبذلك خلا الجو لرضا خان ، فبدأ فى إيران عهد إصلاح لم تعرف البلاد مثله من قبل أو من بعد . وكان مصطفى كمال رائده فى الحكم ومثله الأعلى ، فسار على نهجه فى معظم إصلاحاته متحنباً منها ما كان يمس الدين واللغة والشعور القومى . فمن ذلك أنه آثر أن يتوج نفسه شاهاً على إيران فى سنة ١٩٢٥ بدلا من أن يعلن نفسه رئيساً لجمهورية

يقيمها من جديد وأنه أبقى على الإسلام ديناً للدولة وعلى علماء الإسلام المجتهدين وعلى الكتابة العربية وحروفها ، وسار فى إصلاحاته الأخرى بروح العزم ، مستلهماً القوة من الشعب والجيش . وكان فى مقدمة إصلاحاته النهوض بالجيش ، ونشر لواء الأمن والسلام فى أرجاء الدولة ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وإنشاء السكك الحديدية والمعاهد والكليات والمصانع .

أما سياسته الخارجية فكان من الطبيعى بعد ماقاسته إيران أخيراً على أيدى بريطانيا أن يَطّرِد نمو العلاقات بينه وبين اتحاد السوفييت ، فوفد إلى إيران من روسيا عدد كبير من المهندسين والخبراء والصناع والفنيين ، وأخذت العلاقات التجارية تزداد وتقوى بين البلدين ، حتى بلغ نصيب روسيا ٤٠ ٪ من قيمة مجموع التجارة الخارجية لإيران .

وقد تأكدت الصلات السياسية بتجديد المعاهدة فى سنة ١٩٢٦ . وكان من أهم مانصت عليه تعهد روسيا لإيران برد الاعتداء عليها من ناحية أذربيجان وأرمينية ، وفى مقابل ذلك يصرح لروسيا بدخول قواتها البلاد إذا هاجمتها قوات من الجنوب وعجزت إيران عن ردها . وقد توثقت الصلات بين البلدين حتى أن ممثل روسيا فى بلاط الشاه كان فى رتبة سفير ، وهو امتياز لم تظفر به فى إيران سوى تركيا وأفغانستان ومصر .

أما بريطانيا فقد توترت العلاقات بينها وبين إيران منذ البداءة ، وظهر الخلاف جليًّا فى ثلاث مسائل : الأولى تمرد الشيخ خزعل صاحب « المحمرة » على خليج فارس ، وقد أبدل اسمها الآن وأصبح «حزام شهر» . وكان الشيخ معتزًّا بصداقة بريطانيا ، فرفض أن يذعن لرضا خان كما أذعنت سائر الولايات التى كانت تتمتع من قبل بقسط وافر من الاستقلال والفوضى فى وقت واحد ، فأرسل إليه الشاه قوة أخضعته وحملته أسيراً إلى طهران ، وحاولت الحكومة الانجليزية فك أسره فلم تفلح .

وأما الحادث الثانى فكان بسبب الشركة الإنجليزية الإيرانية لاستخراج البترول ، وكانت شروط العقد مجحفة بإيران ، فانتهز الشاه فرصة هبوط إيرادات الشركة فى سنة ١٩٣٢ على أثر الأزمة المالية العالمية ، وأصدر قراراً بإلغاء شروط الشركة ، فقامت إنجلترا وقعدت وحشدت قطعاً من الأسطول فى شكل مظاهرة بحرية فى الخليج الفارسى لإرهاب الشاه ؛ ولكنه ثبت فى موقفه فاضطرت

الحكومة الانجليزية إلى عرض موضوع النزاع على عصبة الأمم ، فاحتج الشاه بأن موضوع النزاع لايخص الحكومة الانجليزية ولا مجلس العصبة ؛ إذ أن القضية محصورة بين الحكومة وإحدى الشركات . وأخيراً سوى الموضوع وديًّا بعقد اتفاق جديد بشروط سخية لإيران ؛ إذ اشترط ألا يقل نصيبها عن ١٫٠٥٠٫٠٠٠ جنيه فى السنة ، ودفعت الشركة مليون جنيه تسديداً لما عليها . وقد زاد إنتاج الشركة بعد ذلك ، ووصل نصيب الحكومة الإيرانية إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وبلغ الانتاج قبل الحرب الأخيرة ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طن فى العام .

وأما المسألة الثالثة فكانت بشأن « جزيرة البحرين » قرب الساحل الغربى للخليج الفارسى . وقد كانت هذه الجزيرة تابعة لإيران إلى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين احتلها العرب . ولما بدت أهمية الخليج وظهر تنافس الدول بعضها مع بعض فى سبيل التفوق فيه انحاز شيخ الجزيرة إلى بريطانيا ، فأعلنت حمايتها على الجزيرة إلى الآن . ولكن الحكومة الايرانية لم تعترف بهذه الحماية ، وأخذ رضا خان يطالب بريطانيا برفع حمايتها ورد الجزيرة إلى إيران . والجزيرة من أهم القواعد البحرية لبريطانيا فى هذه المنطقة . وأهل الجزيرة من العرب وبينهم إيرانيون ، ولا يمكن أن تتخلى عنها بريطانيا طوعاً .

وعلى رغم هذه الخلافات بقيت العلاقات بين إيران وبريطانيا مشوبة بروح العطف والتقدير من الجانبين . ودل الإنجليز على صفاء الجو بين الدولتين بإرسال بعثة شرف لتهنئة الشاه بمناسبة الاحتفال بزفاف ولى عهده فى مارس سنة ١٩٣٩ .

وقد حرصت حكومة الشاه على أن تقوم علاقاتها مع الدول الشرقية على أقوم الدعائم . فقد سوت خلافاتها مع الأفغان ، وأخذت صلاتها مع العراق تتحسن وخاصة بعد أن انتهى الانتداب البريطانى عنها وقُبلت العراق عضواً فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وقد تأيدت الصداقة بزيارة الملك فيصل لطهران فى ذلك العام نفسه . ولما استعصى حل مشكلة « شط العرب » الذى يفصل بين المملكتين عرض الموضوع على مجلس العصبة ، وتم الاتفاق فى سنة ١٩٣٧ على أن يكون الشط حرًّا للسفن التجارية والحربية للدولتين وبقيت « عبدان » ـ وهى مركز تكرير البترول وشحنه ـ تابعة لإيران ، ورخص لكل من الدولتين

بأن تصرح لدولة ثالثة بدخول أسطولها بشرط إخطار الدولة الأخرى .

أما صلات الشاه بتركيا فكانت على الدوام مشبعة بروح الولاء والصداقة وتعاقدت الحكومتان فى سنة ١٩٣٤ ، وفى نفس تلك السنة حقق رضا خان أمنية طالما تاقت نفسه إليها بزيارة الرئيس أتاتورك فى أنقرة . وقد توجهت جهود الحكومتين فى توثيق الصلات بين دول الشرق الأوسط فى سنة ١٩٣٧ بعقد ميثاق « سعد أباد » قرب طهران بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان . وفيه تأكيد لتبادل الصداقة بين المتعاقدين ، ووعد بعدم الاعتداء وبالتشاور فيما بينهم فى كل ما يهم علاقاتهم الخارجية .

وعلى الرغم من أن الحرب الأخيرة قد وقفت عمل الميثاق كما وقفت ميثاق البلقان وغيره من المواثيق والمعاهدات الدولية ، فإن روح التعاون وتبادل المودة بين شعوب الشرق الأربعة ، قد أوجد لأول مرة فى التاريخ الحديث شعوراً بالتضامن السياسى وإحساساً بالنضج والاستقلال عن دول أوربا الكبرى ، وهو شعور لم يكن موجوداً من قبل . وليس من شك فى أن ميثاق «سعد أباد» هو الذى أوجد النواة التى أنبتت ميثاق جامعة الدول العربية فى أثناء هذه الحرب ، ولن يمضى وقت طويل حتى يتقارب الميثاقان .

أما مصر فقد جمع بينها وبين إيران رباط المصاهرة بين البيتين المالكين ، وكانت الحفلات التى أقيمت بمناسبة زواج ولى العهد من الأميرة فوزية من أبلغ الدلالات على روح الأخوة والمودة التى بدأت تسود بين دول الشرق الأوسط وشعوبه .

وأخيراً تأتى ألمانيا ، وقد كان لظهور هتلر ومبادئه صدى بالغ الأثر فى إيران ؛ فقد كانت حكومة الشاه رضا خان جماعية عسكرية فى أساسها ومرماها . والإيرانيون يعتقدون أنهم سلالة الجنس الآرى الذى نادى به هتلر وفضله على جميع الأجناس . وكان هذا مما دعا الشاه فى سنة ١٩٣٥ أن يقرر تسمية بلاده باسمها القديم « إيران » وأن يخطر الدول بذلك . من هذه الأسباب لم تلبث العلاقات بين البلدين أن توثقت ، فأرسلت ألمانيا خبراءها الاقتصاديين والماليين والمهندسين ، وأنشأت لحكومة الشاه مصانع للأسلحة والذخيرة والحديد وبناء السفن ، وزودت الجامعة فى طهران بعدد من الأساتذة والمستشرقين ، كما استقبلت فى ألمانيا عدداً كبيراً من البعثات العلمية الإيرانية . وأخذت ألمانيا

من الحكومة امتيازاً لخطها الجوى إلى طوكيو ، وملأت السوق بالصحف والمجلات وكتب الدعاية وأشرطة السينما الألمانية .

وفى سنة ١٩٣٧ كانت إيران قد بلغت من المكانة وخطورة الشأن بين الدول مبلغاً دعا إلى اختيارها عضواً غير دائم فى مجلس عصبة الأمم ، وقد ترأس ممثلها المجلس فى يناير سنة ١٩٣٨ .

وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وإيران تنعم لأول مرة فى تاريخها الحديث بحكومة وطنية مصلحة قوية ، وكانت صلاتها على خير مايرام مع أخواتها من دول الشرق ومع دول الغرب أيضاً ، اللهم إلا فرنسا ، وقد كان سبب النفرة بينهما حادثاً تافهاً حول لفظة « الشاه » باللغة الفرنسية ، وإلا بريطانيا وقد راعها كثرة عدد الألمان فى إيران وما أرسلته منذ إعلان الحرب من مدنيين وسيّاح ، استعداداً للعمل ضد الحلفاء عندما تحين الفرصة . ومع ذلك فإن إيران لم تتردد فى إعلان حيدتها عندما بدأت الحرب . ولما هاجمت ألمانيا روسيا فى صيف عام ١٩٤١ عادت إيران فأكدت حيدتها مرة ثانية . ولكن ألمانيا بدأت تستغل انتصاراتها وتحض إيران على انتهاز الفرصة للتخلص من الدولتين الطامعتين فى أراضيها وهما وبريطانيا وروسيا ، فتشبث الشاه بالحيدة الدقيقة . وليس أدل على ذلك من أن إيران لم تتحرك عندما أعلن رشيد عالى الكيلانى ثورته العسكرية فى مايو سنة ١٩٤١ ضد الحلفاء وتسلم مقاليد الحكم فى بغداد .

غير أن روسيا كانت تعانى الأمرّين من جراء إغلاق البحر الأبيض المتوسط والمضايق فى وجهها ، ولم يكن أمام حلفائها لنجدتها سوى طريق البحر الشمالى المتجمد ، وهو طريق طويل محفوف بالأخطار ، ثم طريق الهند وإيران وهو طريق ممهد ولكن لا سبيل إليه إلا باختراق أرض إيران وموافقة الشاه ؛ لذلك اشتد الضغط على إيران وجعلت روسيا وهى تقاسى أشد المحن أمام الهجوم الألمانى تحض بريطانيا على ضرورة احتلال إيران قبل فوات الفرصة . وقد بدءوا بأن طلبوا إلى الشاه طرد الألمان النازحين إلى إيران ، وعز على الشاه أن تضطره الدول إلى خرق الحيدة التى أعلنها وإغضاب ألمانيا ، فأجاب أنه عازم على إبعاد الأجانب جميعاً من إيران ، وفى هذا إشارة إلى إخراج الإنجليز الذين يعملون فى الشركة الإنجليزية الايرانية للبترول ، فلم يرق هذا الرد فى نظر الحلفاء ، وقرروا

الزحف على إيران . وفى أغسطس سنة ١٩٤١ زحف الروس من الشمال واحتلوا أذربيجان ومقاطعات بحر قزوين ، وزحفت بريطانيا من الجنوب فاحتلت الأقاليم الجنوبية ، ولم يقو الجيش الايرانى على المقاومة أكثر من ثلاثة أيام فسقطت الحكومة وأساء الناس الظن بسياسة الحيدة التى انتهجها الشاه ، ما دامت قد أدت إلى كارثة الاحتلال . وعلى ذلك تألفت حكومة جديدة موالية للحلفاء ، ونفى الشاه إلى جزيرة « موريشص » شرقى جزيرة مدغشقر ، حيث مات فى المنفى ودفن فى مصر فى العام الماضى .

وعلى الرغم مما أكده الحلفاء من أن احتلال البلاد كان لضرورة حربية مؤقتة ستزول بانتهاء الحرب ، وعلى رغم ما جاء فى قرارات مؤتمر طهران فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصًّا بايران من أن الدول الثلاث المؤتمرة : روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة متفقة على الاحتفاظ باستقلال إيران وسيادتها وسلامة أراضيها — على الرغم من ذلك كله فان البلاد منذ احتلها الأجنبى وغاب عنها سيدها وقائدها والنافخ فى روحها قد دبّت فيها عقارب التخاذل والقطيعة واضطرب حبل الأمن فى الفيافى السحيقة التى تفصل المدن والولايات بعضها عن بعض ، ولم تعد الولايات تحس بوطأة الرقابة ودقة الحراسة التى كانت تبديها الحكومة المركزية قبل الاحتلال ، وعلى ذلك بدت عوامل الانحلال التى نلحظ مقدماتها الآن .

ووجه الخطر فى مشكلة إيران أن روسيا تعتبر بلاد إيران وما جاورها داخلة فى منطقة نفوذها الكبرى ، وأن ضمان السلام وحسن الجوار فى هذه المنطقة يفرض على روسيا واجبات قد لا تكلّف بها دوليًّا ، ولكنها تراها ضرورة حيوية ، لتأمين حدودها الممتدة إلى مسافات شاسعة ، ولزيادة الرخاء فى ربوع جمهوريات السوفييت الصغيرة المنتشرة وسط آسيا وغربيها . وهى لذلك تعمل الآن على أن يكون لها النفوذ الأول لدى حكومات هذه البلاد وشعوبها .

وإذا كانت روسيا فى بدء ثورتها قد زهدت فى ضم هذه المناطق إليها ، لأنها كانت فى شغل شاغل عنها ، ولأن الصناعة والحركة العالمية فى تلك المناطق لم تكن قد ارتقت بعدُ بحيث يتيسر تحويل البلاد إلى مبدأ الشيوعية ، فإنها الآن وقد انقضى ربع قرن من الزمن تطورت فيه شئون هذه المناطق تطوراً صناعيًّا ملحوظا على أثر كشف آبار البترول وزيادة إنتاجه واصطبغت فيه سياسة روسيا

الخارجية بالصبغة الاستعمارية ، لاترى مندوحة من بسط نفوذها فى هذه المنطقة إما بالضم وإما باحتضان حكوماتها الوطنية .

وعلى هـذا الأساس سارت روسيا فى سياستها فى إيران منذ احتلت جيوشها الأقاليم الشمالية فى أغسطس سنة ١٩٤١؛ فقد عملت فيها كأنها باقية أبداً، فأنشأت حزب الجمهور أو الشعب، وكان محظوراً ظهور الأحزاب فى عهد الشاه السابق . وجعلت روسيا تناصر الحزب الجديد وتعزز جانبه، حتى استطاع فى ولاية أذربيجان (وبها ثلاثة ملايين نفس من خمسة عشر فى جميع إيران) أن يقف فى وجه حكومة طهران وأن ينشئ فيها حكومة ذاتية لها جمعيتها الوطنية وجيشها ولغتها وبريدها وسائر مصالحها .

وإذا كانت الأنباء تؤكد أن الأذربيجانيين لم يعلنوا انفصالهم تماماً عن حكومة طهران ، فلا شك فى أنهم سائرون فى هذا الطريق ، وأن نجاحهم سيغرى غيرهم فى الولايات الأخرى ، وخاصة مناطق الأقليـات كالأكراد وما كان منها متاخماً لحدود اتحاد السوفييت مثل قزوين وجيلان وشمالى خراسان . ومتى استقلت أذربيجان واتخذت تبريز عاصمة ، فلا يبعد أن تبحث لها عن ميناء على الخليج الفارسى ؛ وحينئذ تبلغ روسيا مطمعها الأزلى فى الوصول إلى المياه الدافئة سواء فى أوربا عن طريق المضايق والبحر الأبيض المتوسط أو فى آسيا بسبيل الخليج الفارسى والمحيط الهندى ؛ ولا مفر حينئذ من تصادم المصالح الروسية والبريطانية .

ولا عبرة البتة بما أكدته روسيا من أنها لم تساعد ثوار أذربيجان حربيًّا ، فيكفى أنها منعت قوات طهران من قمع الفتنة ، وكانت حجتها أن مهمة روسيا تنحصر فى حفظ النظام ، وأنها لو سمحت لقوات طهران بالتدخل لاضطرب النظام وسفكت الدماء . وفى اعتقاد روسيا أن حكومات طهران الرجعيـة هى من الضعف والفساد بدرجة تجعلها عاجزة تماماً عن إخضاع الثوار . لذلك اشـترط الثوار ألا يرسلوا ممثليهم أمام المجلس الوطنى بطهران إلا إذا أصلحت الحكومة . ومعنى هذا باللغة السوفيتية أن تكون الحكومة على وئام تام مع روسيا وملحقاتها من جمهوريات السوفييت .

والحكومات الضعيفة هى آفة هذا العصر ؛ فهى مدعاة لاضطراب الأمن وزعزعة الثقة فى نفوس الشعب، ومنها تنبت البذرة التى يتعهدها رسل السوفييت

وأعوانهم حتى تنمو وتتكاثر وتؤتى الثمرة الصالحة للثورة . فلو أن الحلفاء الذين أذلّوا حكومة إيران واستباحوا حرمة أرضها بالاحتلال قد كفروا عن ذنبهم فى حق الديمقراطية الصحيحة بتشجيع الوطنيين والأخذ بيدهم والسير معهم لتحقيق الاصلاحات التى أقامها الشاه السابق ، لتماسكت الحكومة والشعب معاً ولانسدّت الثغرة التى ينفذ منها الأجنبى عادة إلى قلب الدولة . ولكن السياسة الدولية — كما قال الرئيس ترومان مرة — هى مجموعة مساومات بين الدول . ونرجو ألا يكون الحلفاء قد قايضوا على إيران أو جزء منها ؛ فقد ترى روسيا أنها ما دامت تشترك مع الحلفاء وتتفاهم معهم فى المسائل الدولية الكبرى التى تهمهم جميعاً فليس هناك معنى لأن يدقق معها الحلفاء فى مسائل أقل شأنا أو يناقشوها الحساب أمام مؤتمرات دولية . قد يتحرج فيها مركز السوفييت أمام العالم . وعلى ذلك يحتمل كثيراً أن تحاول الدول الثلاث الوصول إلى حل سريع لهذه المشكلة قبل أن يحين موعد جلاء الجيوش المحتلة فى ٢ مارس المقبل ، وقبل أن تتألف جبهة معارضة لروسيا من الأتراك والإيرانيين وأنصارهم من ممثلى الدول الوسطى والصغرى . وهؤلاء إذا ما صرخوا بشكواهم فى وجه روسيا أمام هيئة الأمم المتحدة هزّوا أديم الأرض التى تقف عليها روسيا وحلفاؤها وهم يتساومون بشأن مصير الأمم الصغيرة ومصالحها .

محمد رفعت